الدين والحياة

للأستاذ حامد محمود الزفرى

والثقافة هى التجربة الفكرية المشبعة بروافد المعارف والعلوم والبصر بأقوى السبل وأنضج الطرق لاستخدامها فى مصلحة الفرد والجماعة والإنسانية سواء منها الجانب الباطنى ، النفسى والوجدانى ، أو السلوك الظاهرى والتعامل الاجتماعى والاقتصادى ، وحقيقة هذا الاتجاه فى الإنسان وجدت بوجوده وتطورت بنموه خلال القرون والأحداث وبسببه قامت الثورات وعدلت الاتجاهات .

وإذا كانت قوة الأمة تعبر عن وجودها فى الجيش فإن عقل الشعب وتفكيره يوجد فيما يتعلمه ويتثقف به ، ومن الأهمية بمكان أن نلقى نظرة خاطفة على سير التيارات الفكرية فيما نحن بصدده حتى نرى مدى ما ترتبط به هذه التيارات من التعليم أو التوجيه الدينى من جهة والعروبة من جهة ثانية وأثر الطوارىء الزاحفة من جهة ثالثة .

وعلى أية حال فإن الجمود الذى أصاب المجتمع العربى فى العصر التركى لم يخلف لنا سوى ترهات وزيف لفظى لا يحمل معنى ،وليس له مغزى ، هذا فضلا عن الفقر المدقع فى هذا الاتجاه بالذات .

ولم تكد تصل الحملة الفرنسية فى القرن الثامن عشر إلى مصر حتى كونت مجمعاً علميا أخذ ينقب ويبحث فى الآثار والمخلفات وتم له بعض ما أراد ولكن هذه الثورات كانت وكزة لنا وإيقاظا لهممنا فأخذنا نتطلع ونرقب .

وبتولى محمد على حكم مصر أخذ يدبر لدوام ملكه وقوة جيشه الذى سيعتمد عليه فى التهام بعض أملاك الخلافة ، وأن ذلك لن يكون إلا بحماية جيشه من أخطاو الأمراض وإرادة الإثراء وإصلاح الأراضى وريها وصرفها .من ذلك وغيره ولأجل كل ما يرغب فى تحقيقه أخذ يرسل البعوث إلى أوربا ولم يكن بمصر دار تعليم يعتمد عليها سوى الأزهر الشريف الذى ظل خالداً رغم أنف الخطوب والأزمات .

وتحرك النائم وأخذ ينفض الغبار عن نفسه وأخذ العالم العربى تفد إليه أسراب

من المعارف والترجمات . وأخذ رجالات الطليعة يعملون فى دأب وصمت ، حتى إذا ما تكالب علينا الاستعمار وتقاتل علينا نحن الغنيمة الدسمة الفرنسيون والانجليز ، وخابت الحملة الفرنسية ورجعت مقهورة مدحورة أمام الاستبسال العربى وعوامل الشعب الداخلية ، وأمام تدبير الماكرة سيدة البحار أنذاك . ولظروفها الداخلية فى فرنسا .

رغم هذا الانكسار الذى منيت به الحملة فى المجال السياسى المتسلط فقد سبقت انجلترا المستعمرة فى المجال التعليمى داخل مصر ، وخاف الانجليز مغبة تأخرهم هذا وتقدم الفرنسيين فلم يسعهم إسعافا لموقفهم إلا أن يفرضوا اللغة الإنجليزية على جميع مواد الدراسة فى المدارس المصرية وثار الشعب وتيقظ الوعى لهذه اللعبة الخطرة التى يقوم بها الاستعمار محاولا بها القضاء على فكر الأمة وتراثها وهو ما تقوم به فرنسا فى جميع مستعمراتها لتقضى على أصالة الشعب وتفتت تفكيره وتميت شخصيته .

وكنا فى صراع عنيف مع الظروف والمستعمر ولكن أصالة الفكر العربى وإنسانية أسلوبه ، وعالمية رسالته حمته من هذا الشر المستطير وتلك الخطة الخبيثة ، وقامت الجامعة المصرية ، والمجامع العربية فى مصر ودمشق وغيرها وبانت طلائع الزحف الثقافى وبناة التفكير العربى وأخذت الكنوز الثقافية التى عمرت بها مكتبات أوربا وما عثر عليه المستشرقون من تراثنا الضخم ، أخذت روافد المعرفة من بعثات وترجمة وإحياء وبعث واستشراق وإقامة جامعات ومجامع ، أخذت هذه الروافد نصب فى نهر التفكير العربى الخالد المحفوف بضفتى الأزهر الشريف والتراث الإسلامى الكبير .

ولكن الاستعمار وألاعيبه لم يدع الفرصة ولم يتح الظروف للنمو المتكامل من جهة ، وسوء الحالة السياسية والجشع الاجتماعى والإقطاع وفساد القائمين على الأمور من جهة أخرى ، هذه العوامل هى الأخرى كان لها تأثير على مجرى النهر فتارة تعكر وآنا تلوى عنانه ، ومرة تفسده ، وطورا تأخذه إلى ساحة اللهو والمجون والعبث والفجور .

ورغم هذا كله فقد كانت هناك بقية هى معدن الشعب الأصيل ومعناه النبيل ما تزال تمسك نفسها وتحمى معالمها وتعض على تراثها بالناجز والناب ، وأخذت تقتضى أثر النابهين من أبناء الأمة الإسلامية وتسير على هديهم وتترسم خطاهم وقد

اتسمت هذه البقية بالبحث الجاد فى المعارف العربيه والمثل الدينية وهم كثيرون ودارسون واعيون ، من منابع الأفغانى ، والإمام محمد عبده والكواكبى والوهابيه ورشيد رضا وآل عبد الرازق وغيرهم على هذا الضرب ساروا فى دروبهم ومن سار على الدرب وصل كما يقولون . ولكن الصراع بين التيارات العربية وبين الثقافة والمعارف العربية الإسلامية لما يزل شديد الأوار ومستعر النار. فتارة نرى الخروج على الدين وريقة التعاليم الإسلامية ضربا من التقدم ودليلا على التمدن والتطور ، ومرة نسمع أن العرب عيال على الثقافات الأوربية القديمة (الإغريقية) وأنهم إنما كانوا وسطاء وحمالين . حملوا من الغابرين ليسلموا إلى اللاحقين . وأنهم بطبيعتهم جزئيون خياليون . ليسوا من أرباب العمق التفكيرى أو التفلسف العقلى أو الاتجاه العملى . الخ هذه الدعايات التى أطلق أبواقها المستشرقون لخدمة دولهم وإرضاء لغريزة الاستعلاء ، وعلى الأخص المستشرق الألمانى (ديبور) فى كتابه الذى قام بترجمته الدكتور أبو ريده . وأخلص بعض المستغربين لدعايات أساتذتهم فرددوا ما أرادوا ، بل إن بعضهم بلغ به علمه الابداعى الفياض إلى تقسيم الجنس البشرى إلى غربى إبداعى خلاق وشرقى جامد متأخر . الأول آرى عميق الفكر والثانى سامى خيالى غيبى .

كل هذا يقال وأكثر منه بينما الكنوز العربية والمعارف الإسلاميه تعمر بها جامعات أوربا ومكتبات ليدن وباريس وغيرها . ولكن الأغرار الذين خدعتهم مظاهر المدنية البراقة . ويا ليت معارفها ولكن لباسها وزينتها وعطورها وسياراتها. الخ هذه المظاهر الترفيهية ، وقادتهم أغراض الاستعمار وجرفهم التيار المغرض دون شعور بالمسئولية حيال أنفسهم وأمتهم وحيال المعانى الإنسانية والغاية الكونية الكبرى . ولقد جرهم كل هذا إلى الانتقاص من ذواتهم والتبرم بآبائهم والإعراض عن مقوماتهم والغفلة عن أصلهم ودورهم فى بناء المدنية وسير الحياة .

ونستطيع أن نقول : إن هذا القطاع التاريخى من حياة أمتنا العربية سارت فيه المعارف والأفكار فى تيه وحيرة وأخذ ورد فلم يتبلور اتجاه معين أو خطة مرتبطة . بل غرب وأتباع له فى المعرفة والأسلوب وحتى الفنون ، وقديم وأتباع له فى المعاوف والطريقة وبين هذين التيارين وجدت . . . قلة بعضها منصف والآخر متحيز وعلى كل فقد دبت الحياة ونمت المعرفة وسار الركب بما شاءت له الظروف

والأحداث وكل حزب بما لديهم فرحون وكان هذا النشاط البشرى المختلط هو الآخر شأنه شأن الكائن الحى بحاجة إلى تعديل أو توجيه .

وبقيام الثورة العربية فى ٢٣ يوليو كان لا بد وأن تقيم اتجاهها التفكيرى وخطتها الثقافية على أساس تقدمى مرتبط بجذورها العربية وأصولها التاريخية وتفكيرها الإنسانى المحايد وغايتها المثالية وأهدافها الكونية الكبرى .

وفى ظل ذلك يمكن أن تقيم دعائم ثقافة عربية حديثة سداها التفاعل العصرى مع الأحداث الفكرية والكشوف العلمية ولحمتها الارتباط بمقوماتنا التاريخية والاعتقادية وهو شأن الثورات البناءة الهادفة والنامية الخالدة . ونكون بذلك قد قدمنا الدليل مرة ثانية على قوة اندفاعنا التقدمى وأصالة ذاتيتنا الخلاقة فى المجال العلمى وإخلاصنا وتفانينا فى خدمة الثقافة والمعرفة الإنسانية ودفعنا بعجلة التقدم نحو النور والسلام وحمينا مكاسب الإنسان العلمية وتراثه الفكرى من أن ينهار أمام الاطماع والأنانية الاستعمارية من جانب الغرب أو التنمر للأخلاق والتسلط على المثاليات من شرق أوربا ومن لف لفهم .

إننا لا ننفك فى موقفنا التفكيرى عن التزاماتنا حيال المعتقدات والمثاليات فى المجال السياسى أو الاجتماعى أو التنظيمى العام للأفراد والجماعات والإنسانية عامة ؟

يتبع